الإدارة الأمريكية ودرس الفلوجة!

01-5-2004

فلقد تعامل الأمريكان - بشكل مفرط في السذاجة، وبناء على رؤية استشراقية ضحلة– مع الشعب العراقي على أنه لا يفهم غير لغة القوة والمال، بمعنى أنه مخلوق رديء، لا يجوز التعامل معه كما يتم التعامل حاليا مع المجتمعات الغربية، أو باقي البشر، وتمت عمليات القتل والذبح والتعذيب على أيدي الجنود الانجلوساكسون في العراق من خلال تبرير أخلاقي يريحهم من شواغل الضمير طالما أنهم يتعاملون مع بشر [من نوع رديء] ربما تكون حياة الحيوان أغلى وأرقى من حياته!. فلا أتصور أبدا أن الضابطة

بقلم [محمد سليمان]

تبدو النتيجة التي توصل إليها أهالي الفلوجة مع جيش الاحتلال بمثابة أقصى ما يمكن الوصول إليه في ظل المعادلة الحالية من الصراع، وربما سيسطر التاريخ الإنساني – وليس العربي فقط – ملحمة الفلوجة كخبرة انسانية جديدة في التعبير عن أهمية الإرادة ودورها في سنن الوجود والحياة، وفي التعريف بجوهر الإنسان العربي المتميز بكثير من الصفات، التي لا يعرف معناها الآخرون، وأهم ذلك صفة الكرامة الإنسانية.

فلقد تعامل الأمريكان - بشكل مفرط في السذاجة، وبناء على رؤية استشراقية ضحلة قدمها لهم بعض المستشرقين الصهاينة– مع الشعب العراقي على أنه – كما هو الحال في الشعوب العربية – لا يفهم غير لغة القوة والمال، بمعنى أنه مخلوق رديء، لا يجوز التعامل معه كما يتم التعامل حاليا مع المجتمعات الغربية، أو باقي البشر، وتمت عمليات القتل والذبح والتعذيب على أيدي الجنود الانجلوساكسون في العراق من خلال تبرير أخلاقي يريحهم من شواغل الضمير طالما أنهم يتعاملون مع بشر [من نوع رديء] ربما تكون حياة الحيوان أغلى وأرقى من حياته!. فلا أتصور أبدا أن الضابطة في الجيش الأمريكي، التي أظهرتها الصور وهي تقوم بالتعذيب القذر للأسرى العزل، أنها تعامل الحيوانات بهذه الطريقة، بل أعتقد لو أن الصور التي نشرت للأسرى المعذبين في العراق استبدلناها بصور لحيوانات معذبة لكانت ردة فعل الشارع والمجتمع الأمريكي أعنف بكثير، ولخرجت مظاهرات ومسيرات كبرى في الشوارع الغربية في التنديد ببشاعة الروح التي تعذب الحيوانات المسالمة!.

لقد أظهرت كثير من المقالات والدراسات والمخططات الأمريكية، كما سأوثق لاحقا، أن مشاهد التعذيب اللاإنسانية، التي يستخدمها الجنود الأمريكان (والبريطانيون كذلك كما كشفت مؤخرا مجلة بريطانية)، وما يترافق مع ذلك من انتهاك للأعراض، أن هذه الأساليب ليست منفصلة البتة عن الروح والفلسفة التي تسيطر على الإدارة الأمريكية في التعامل مع العرب والمسلمين، الأمر الذي دفعهم إلى الاستعانة بالأساليب التي يصفها الباحث المتميز "ستيفن زونز" بأنها "قذرة" وأعتقد أن كلمة قذرة لا تصلح في هذا السياق وإنما يجب استبدالها بكلمة "كاشفة"، بمعنى أنها تكشف حقيقة الروح الأخلاقية للولايات المتحدة الأمريكية، إذ باتت اليوم فاسدة وعارية عن كل القيم الأخلاقية الحقيقية، وإن حاولت أن تتغطى ببعض الإدعاءات الأخلاقية، والتي تسقط يوما بعد يوم. كما يسجل ذلك لنا مراد هوفمان في كتابه "خواء الذات" وكذلك الأمر زيجمنت باومان في كتابه "الحب السائل" وجاي ريل في مقاله "إنها الميديا يا غبي" (منشور في مجلة سطور مارس 2004).

فلقد وثق زونز وغيره من الكتاب كثيرا من التصريحات والمعلومات التي تؤكد المنطق السابق الذي تتعامل به الإدارة الأمريكية مع الشعب العراقي، كما أكد زونز (في مقالته المنشورة على موقع Foreign Policy in Focus بعنوان العراق بعد عام على الحرب) وجود عدد من الخبراء العسكريين الصهاينة بين القوات الأمريكية العاملة في العراق، ووجود عدد من الجنود الأمريكان داخل الأراضي المحتلة لتتلقى القوات الأمريكية الخبرة الصهيونية المطلوبة في قمع الحركات الوطنية والجهادية والتعامل مع الشعوب العربية عموما. وجرت على هذا الأساس السياسة الأمريكية في التعامل مع العراقيين، ومع حركات المقاومة ، لذلك فإن مشاهد التعذيب التي شاهدها العالم بأسره من قبل الجنود الأمريكان والبريطانيين بحق الأسرى والمعتقلين العراقيين ليست نشازا عن السياسة الأمريكية أو الروح الفلسفية التي تتحكم بالإدارة الأمريكية؛ بل هي تأكيد وتطبيق عملي لها، وإلا فإن ما حدث هنا لا يختلف مع ما حدث في الفلوجة وغيرها من قتل الاطفال والنساء وهدم البيوت، وتعذيب الناس بالقنابل العنقودية الحارقة وبالأسلحة المحرمة دوليا وأخلاقيا، والتي لم تستخدم ضد قوات مسلحة بل ضد أطفال ونساء في بيوتهم ليسوا آمنين ! .

ما عليك إلا أن تتصفح بعض المواقع الأمريكية حتى تقرأ التبريرات والتجميلات لهذه السياسة وإضفاء الطابع الأخلاقي الشرعي عليها، فجيمس فيليبس الخبير الأمريكي في مؤسسة التراث (وهي أحد بنوك التفكير الرئيسة للمحافظين الجدد) يرى أن الإنسان العربي لا يفهم غير لغة القوة والمال، وأن الولايات المتحدة ستنتصر بالعراق من خلال هذا الأسلوب (انظر مقاله حول اعتقال صدام: الآن اتيع المال ومقاله العراق بعد عام على الحرب). وفريد زكريا يؤكد أن المحافظين الجدد يؤمنون تماما بمقولة أن العرب لا يفهمون غير لغة القوة، ويوثق لنا جيم لوب في مقاله "حرب محدودة الآن ضد حرب أهلية مستقبلا" (على موقع Foreign Policy in

Focus) آراء مجموعة من الأكاديمين والخبراء الأمريكان الذين يصبغون الطابع الأخلاقي والقانوني على الحرب الوحشية ضد المدن العراقية وضد المدنيين.

إلا أن ملحمة الفلوجة جاءت لتكشف هذه الأكذوبة، وتؤكد على أن معدن الأنسان العربي مختلف تماما عن هذه الرؤية، وأن سياقات الظروف الراهنة من تحمل الاستبداد والفساد السلطوي في العالم العربي، ليست مؤشرا على دناءة الأخلاق، وإنما عن العجز عن الوصول إلى التغيير السياسي المطلوب. وبالتالي وضعت الفلوجة ومشاهد البطولة والكبرياء فيها حدا للرؤية الأمريكية السابقة، ودفعت بكثير من المحللين والخبراء الأمريكان إلى إعادة النظر في كثير من الافتراضات الاستشراقية السخيفة حول الشعوب العربية، كما فعل دانيال بايبس في مقاله The Roots of Iraq's Rebellion (جذور الثورة العراقية) إذ أكد على خطأ الفرضية التي دخلت بها الولايات المتحدة الحرب في تصور المشاكلة التاريخية بين الحالة العراقية والحالة اليابانية والألمانية، فرأى يايبس أن الحالة مختلفة، لأن الجيش العراقي غير مدمر، والعراقيين لا يشعرون بأنهم منهزمون، بل منتصرون، بسبب الخلاص من الطاغية صدام، وانهم يرفعون الآن شعار (لا أمريكا، لا صدام .. نعم للإسلام)، وأن هناك روح إسلامية لا تسمح للعراقيين وللشعوب العربية بالقبول بالاحتلال كما كان الأمر بالنسبة لليابانيين والكوريين.

لقد دفعت الفلوجة الولايات المتحدة إلى مراجعة عميقة، ووضعتها وجها لوجه أمام الرد العملي على المقولات السخيفة حول الشعوب العربية، واضطرت الولايات المتحدة إلى القبول بحلول على الصعيد العسكري والأخلاقي تظهر مدى قدرة الشعوب العربية وإرادتها. فقبلت بشروط أهالي الفلوجة، وبدأت تطالب بقوات عربية بدلا من القوات الأمريكية للتعامل مع هذه الشعوب، وسعيا للتخلص من هذا المستنقع الذي وقعت به، وتحاول بأي طريقة تسكين الثورة والتحايل على الروح الإيمانية التي تنهض عليها المقاومة العراقية.

إن في الفلوجة لدروسا وعبراً، فمجموعة من المقاتلين المعزولين المحاصرين، يساندهم أهالي مدينة مطبوعة أخلاقها بالتدين والإيمان، يتمكنون من فرض شروطهم وإرادتهم على قوة عالمية وجيش كبير مزود بكل أنواع السلاح والقوة والقدرات، هذه الحالة يا سادة ليست كحالة فيتنام - كما يقارنها اليوم خبراء أمريكيون-، وإنما حالة فريدة ذات بعد نضالي وإنساني أعمق وأخطر، وتستوجب منا جميعا قراءتها وتحليلها ودراستها بشكل صحيح، فهي رسالة فيها من الدروس والعبر الكثير، كما أنها انتصار كبير وعظيم للمقاومة العراقية، وإسقاط للروح الهمجية للإدارة الأمريكية.